التذكار المئوي

للرابطة الادبية الفرنسوية (١٨٣٠ — ١٨٥٠)

LE ROMANTISME

بقلم نصرالله واسعد نصرالله

اهم السنين التي تطور فيها الادب الافرنسي سنة ١٥٤٩ و ١٦٣٦ و ١٨٣٠ . ففي ١٥٤٩ نشر دي بللي J. du Bellay كتابه المدعو « *Deffence et illustration de la langue française* » حامى فيه عن اللغة الافرنسية ، ودوّن قواعد خصوصية لكل فنّ من فنونها . وسنة ١٦٣٦ برزت الى الوجود رواية « السيد *Le Cid* » للروائي الشهير كورنيل ، واخيرًا سنة ١٨٣٠ مُثلت رواية هرناني « *Hernani* » لڤكتور هوغو .

فالكتب الثلاثة المشار اليها ليست مؤلفات سامية فحسب ، بل كانت في طليعة انقلاب جديد في التفكر والاحساس والكتابة .

هاجت سنة ١٨٣٠ آداب القرن السابع عشر وارادت ان تستبدل بها آداب القرن التاسع عشر . فرأينا ان لا ندع هذه السنة تمرّ دون ان نقول كلمة ، نظرًا لمرور قرن كامل على رابطة احصت بين رجالها من الشعراء المتفوقين مَن لا تزال قصائدهم تأخذ بمجامع القلوب فتنعش النفوس سكرى برحيقها .

وقضاء للموضوع حقه نقسمه الى اربعة ابواب نتكلم في اولها عن تحديد او عن تعريف تلك الرابطة ، ٢ً عن اسبابها ، ٣ً عن تاريخها ، ٤ً عن مآثرها . وذلك تتمةً لفائدة القراء بما نضيف الى لغتنا من معلومات قيمة عن آداب الغرب . وقد اصبح من المحقق ان الكاتب العربي المجيد لا ندحة له ، كما شهد غير واحد من علية كتابنا ، عن الاطلاع على آداب الافرنج ، ومن سبقهم من الرومان واليونان .

١

تحديد هذه الرابطة الادبية

يمثل لنا موسّه في كتابه « *Lettres de Dupuis et Cotonet* » رجلين صرفا السنين الطوال عليها يقفان على تحديد لهذه الطفرة الادبيـة . لكنهما لم يظفرا بطائل . ولعلّ ما فات الرجلين لا يفوتنا.

فاصدق تعريف لهـذه النهضة هو انهـا ثورة في الاحساس ، والفكر ، والكتابة . ومعلوم ان كل ثورة تدفع الشعوب الى التملّص من ربقة قـديم عافته نفوسها ، وسئمته طباعها ، الى جديد طلي تأنس به خواطرها ، وترتاح اليه اميالها . وعليه فكتّاب القرن التاسع عشر بنهجهم الجديد نازعوا آداب القرن السابع عشر ، وارادوا تقويض معالمها. ومن البيّن ان من اطلع على تاريخ اللغة الافرنسية يعلم ان ادباء القرن السابع عشر كانت خطتهم الاحتذاء بالاقدمين ، والتطريس على آثار الاوائل ، ولاسيما اليونان والرومان . وقد وضعوا لكل من فنون الكتابة قواعد خاصة لا يسوغ للمنشئ ان يتعدّاها . ومن ميزات تلك الحقبة سيادة العقل وسيطرة الفكر ، بحيث كان يهيمن على الخيال والاحساس. واما الاخيران فكانا تابعَين له ، وكثيرًا ما ابتخس شأنها وبولغ في الحطّ من مقامها.

اما كتاب القرن التاسع عشر فجروا على خطـة معاكسة لانهم نبـذوا الاتمام بالمتقدمين ، وتفلّتوا من الضوابط ، واطلقوا للقلم العنـان يجري على هواه ، ورفعوا من مستوى الشعور والخيال حتى جعلوهما والعقل في سمتٍ واحد بل كثيرًا ما رفعوهما البعض منهم فوق العقل .

٢

اسبابها

يحسن بنا بعد ان انهينا التحديد ان ننتقل بالقارئ الى الاسباب التي حدت بمنشئي القرن التاسع عشر الى ان يثوروا على القديم ، ويناهضوا من تقدمهم .

ومرجع هذه الاسباب الى اثنين : اولها ضيق نطاق قواعد الادب القديم ، لاسيما في غاية القرن الثامن عشر ، حتى صار الكاتب يعدّ مبرّزًا اذا استظهر قواعد معلومة ، وطبق انشاءه عليها . وهذا التعبد جعل الكتّاب عبيدًا لمثل معلومة . ولا يخفى ما في ذلك من الغضّ من القيمة الشخصية ونتائج الفكر . اضف الى ذلك نضوب ينابيع الادب القديم ، بحيث لم يعد مورد يستقي منه الفكر . فتسرّب الملل الى النفوس حتى هتف احد الشعراء : « من ينقذني من ادب اليونان والرومان » .

السبب الثاني هو ان الشعب الافرنسي كان قد انفسح خياله لما مرّ به من الاهوال في حروب نابوليون الكبير ، ودقّ احساسه بما شاهد من مجازر الثورة وملاحمها الدموية ، ومن قراءة بعض المؤلفات التي تجعل للاحساس المقام الاول كمؤلفات روسو ، وروايات غوته وشيلر وولتر سكوت وشكسبير ، وقصائد الشعراء البحيريين (*Les poètes Lakistes*) من امثال كوليدج وسوثي ووردسوورث وخصوصاً قصائد بيرون . فتشرّبت نفسه الحرّية ، وتلمس ضوابط جديدة تواءم نزعاته ، وتطلّب ما يرضي خياله ويغذي شعوره ، اعني ادباً جديداً يفي بمطالبه . وعليه فما نشر لامرتين سنة ١٨٢٠ كتابه المدعو التأملات « *Les Méditations* » حتى تلقاه الشعب بالاستحسان اذ رأى فيه ما يحقق احلامه الذهبية . هذا ما دفع لامرتين الى القول عن نفسه « هوذا الشاعر الذي يتوقع الشعب بزوغه من بعد روسو ، وبرزدين دي سان پيير ، وشاتوبريان [1] »

٣

تأثير انجلترا

في اواخر القرن الثامن عشر نرى الشعراء ينزعون الى منهج جديد اذ دبّ فيهم روح حديث دفعهم الى الانقلاب على الماضي ، فروسو هو الذي ابتدع

---

(١) *Première préface des Méditations.*

اسلوباً طريفاً لوصف الطبيعة والتغني بجمال الكون . وكذلك تبعه برنردين دي سان پيير .

وكلما دنونا من السنة الثلاثين ازداد نمو هذا الروح وتأهبت العقول لقبوله . فشاتوبريان ساكى روسو في طريقته ، لا بل فاقه في تحبيب مشاهد الطبيعة وادراكها مجلاه . فان كان يحق لروسو ان يدعى جدّ ادب القرن التاسع عشر ، يسوغ لشاتوبريان ان يدعى اباه . وفي هذا المعنى قال تيوفيل غوتيه « ان شاتوبريان هو عميد الادب الجديد » ففي كتابه المدعو « عبقرية النصرانية » « *Génie du Christianisme* » اعاد الى الوجود الفنّ الوطني ؛ وفي رواية « الناتشز *Les Natchez* » فسح للخاطر رؤية مجالي الطبيعة الجذّابة بنمط بديع ؛ واخيراً في « رينه *René* » عرّف تلك الحالة التي تنتاب النفس احياناً وتلقيها في بحر من الغم بدون داع . وهذا الداء قد تفاقم في القرن التاسع عشر حتى سمي مرض العصر (*Mal du siècle*) . وقد كان لمدام دي ستال (M. de Staël) مقام ممتاز بين مؤسسي هذه النهضة ، ويحق لها ان تحسب في عداد موجديها لانها بكتابها « كورين *Corinne* » عرفت الافرنسيين بايطالية الحديثة حيث ازهر الادب الجديد . واوقفتهم على مشاهير منشئي المانية كغوته وشيلر .

على ان كتاب لامرتين المسمى « التأملات *Les Méditations* » وقصائد الفرد دي ڤيني (de Vigny) تعدّ باكورة هذا الادب الحديث . ففي هذين الكتابين تجلت الاساليب الحديثة .

فالشعراء الذين وجدوا لهذا الفن هوًى من نفوسهم التأموا في ندوة خاصة في منزل شارل نوديه (Nodier) والفوا جمعية ادبية (*Cénacle* ١) . فكانوا يحسون بعضهم ، وفي مطاوي مناظراتهم يجلون عن خواطرهم ويصلحون ما وجدوا فيها من الخلل . وفي سنة ١٨٢٣ وضعوا مجلة شهرية « *Muses Françaises* » نشروا فيها اساليب فنهم . فنظر اشياع الزيّ القديم بعين الاشمئزاز والنفور هذه الآراء المضادة لآرائهم ، فاخذ النزاع بين الفريقين يشتدّ ويتفاقم . ثم قام فكتور هوغو ، الذي اشتهر في كتابه « *Odes et Ballades* » فصنف عدة نشرات بيّن فيها بكل وضوح افكاره الادبية واساليبه الفنية .

وفي سنة ١٨٢٦ نشر رواية «كرومويل *Cromwell*» بسط في مقدمتها قواعد فن التمثيل الجديد. فهذه المؤلفات صادفت استحسان المجددين واستهجان محبي القديم، فاحتدم وطيس الجدال بين الفريقين، وكثيراً ما افضى اللدد الى الشتم والضرب. واذ كان الشعب يتوقع كتاباً مستوفياً كل قواعد الفنّ، مثل دي ڤيني رواية «اوتلو *Otbello*» المترجمة عن شكسبير. ومن بعده وضع هوغو رواية «هرناني *Hernani*». عندئذٍ تقوّت دعائم ادب المجددين، فخال هؤلاء ان اركان الادب القديم تزعزعت. وفي مدة عشر سنين، على رغم ما جرى من الانتقادات والمصادمات، استظهر المجددون على خصامهم ووضعوا بضعة مؤلفات ابدعوا فيها، وقد بحثوا في كل فرع من فروع الادب لاسيما في الفنون الجميلة.

فتفوق في الشعر الغنائي هوغو، ولامرتين، وڤيني، وموسه؛ وفي القصص هوغو، وڤيني، ودوما (Dumas)، وجورج سند، وبلزاك. وفي التاريخ تييري وميشليه. واعاد لامني ولاكورديو الى الخطابة الدينية رونقها وجمالها. وبثوا في كل من الفنون قوةً لم تكن لها قبلاً، فاحدث جريكو، وجيروردي، ودي لاكروا، واري شيفر، فنّ تصوير جديد. ومن ثمار قرائحهم: زورق الميدوز، ورأتم اتالا، وقارب دانتي. وداڤيد دانجه وورود (David d'Angers et Rude) تفوّقا في نقش التماثيل، ومن روائع ما اتحفانا به فيلوبين والمرسيليز. ونبغ في الموسيقى شوپين وبرليوز (Chopin et Berlioz) مؤلفا المقاطع الخلابة كالنشيد المئتي، وهلاك فوست.

على ان الاسباب التي ساعدت على تشييد هذا الصرح الادبي هي عينها عملت على دكه وسقوطه. فقد عاش هذا الفن طيلة بقاء اصحابه غير مضيقين على مبادئهم، ومدة لقائه هوًى من نفوس الشعب، وموافقته لذوقه. فما اتت السنة الخمسون حتى اخذ في الانهيار والتداعي. وغدا جمعية لا تحفل الا بطنطنة الالفاظ وسبك الجمل، دون الاهتمام بالافكار، فانصرفت الى المباني دون المعاني. وزد على ذلك ان خيرة الشعب جعلته ان لا يحفل بنتائج الخيال حيث يحلّق الشاعر في فضاء الاوهام. فاخذ الشك والارتياب يدبّ الى النفوس، وهذا الريب ولّد ظمأً شديداً الى اغتنام ملاذ الحياة، فاخذ الروح المادي

الذي وضعه كونت يتسع وينتشر . ومن ثم تطلب ادباً يلائمه ، ويتكيف بكيفيته ، فاوجد ادباً مادياً صرفاً (*Réalisme*) خلف الادب الذي ذاع من ١٨٣٠ الى ١٨٥٠ . هذا وان سقوط رواية البُرْگراف « *Les Burgraves* » لفكتور هوغو سنة ١٨٤٣ ، وتلقي الشعب ، بمزيد الاستحسان ، رواية لوكريس « *Lucrèce* » التي تمتّ الى ادب القرن السابع عشر ، كان نذيراً بادبار ادب تلك الحقبة . اضف اليه نضوب قرائح المجدّدين وعدولهم عن نشر مؤلفات تحييهم الى الشعب . فلامرتين انصرف الى السياسة ، ولم ينشر الا مصنفات قليلة جارياً على ما قاله : « ما الشعر الا دعابة يلهو بها الخاطر ابان الراحة . اما الخبز اليومي فهو الثقل الدائم » . وڤيني بعد انضمامه الى الاكادمية الافرنسية (١٨٤٥) اعتزل الناس وانقطع الى قصر في املاكه مزجياً بقية حياته في التوفر على العناية بزوجته المريضة ، والتأمل ، وكتابة خواطر خاصة . ومرسّه ارتطم في حمأة الرذائل ، وعكفت نفسه على الملاذّ ، فقضى على قريحته الوقّادة التي صارت جدبة قليلة الثمار . اما هوغو فعمل وحده بفكرته الفياضة على اطالة حياة تلك النهضة الادبية الى سنة ١٨٨٥ . على انه كان وحيداً ، وكان يبدّل ذوقه طبقاً لرغائب الشعب .

٤

مآثرها

يجمل بنا في نهاية هذا المقال ان نقول كلمة عما تركه هذا الادب من الآثار . اول شيء اوجده هو تجديد ، بل ابداع ، الشعر الغنائي الذي كان تضاءل شأنه جداً في غاية القرن الثامن عشر . فعرفنا شعراء هذا العصر بمحاسن الطبيعة بكل رشاقة وجلاء واغرونا بحبها ، لانهم جسّوا مشاهدها وهاموا بجمالها ، ولذا قال لامرتين : « ايتها الكائنات الجامدة هل لك نفس تلاصق نفوسنا فتضطرها الى حبها ؟ »[1] . ومن مآثرهم انهم اعادوا الى الديانة المنزلة التي تحقّ لها ، فكان لامرتين اول من اوجد الشعر الديني في فرنسة حتى ان

(١) *Harmonies poétiques - Milly ou la Terre Natale.*

ليون غوتيه (Léon Gautier) قال عنه : « انه لصعب علي ان اتصور مسيحياً لا يحب لامرتين ، لا بل لا يحفظ له في قلبه اخلص عواطف الشكر» وايضاً : « اننا نحن الكاثوليك نحفظ لك ، ايها الشاعر المحبوب ، اطيب التذكارات لانك سموت بنفوس عديدة نحو الله ، نفوس لدى مطالعتها كتاباتك ارتفعت بافكارها عن اوحال الرذيلة »[1] .

ومن مآتي ادباء هذا العصر انهم سلكوا في التعبير عن افكارهم والابداء عن عواطفهم منهجاً جديداً ، فجددوا اللغة شعراً ونثراً ورفعوا ذلك الحجاب الفاصل بين الكلمات حتى انه لم يكن يسوغ في الافرنسية ان يطلق على بعض الاشياء اسماؤها الوضعية ، بل كانوا يعبرون عنها بلفظ مجازي . فالمتجددون اطلقوا على كل مسمى اسمه الخاص[2] . واكتسبت المنظومات رقة ولياناً وصارت اكثر طواعية للخاطر ، واعذب على السمع ، واوقع في النفس .

على ان ازاء هذه المحاسن سيئات لا يسعنا الاغضاء عنها . منها ان الفكر فقد بسبب فرط العناية بالالفاظ شيئاً من قوته . كما ان اطلاق عنان المخيلة والشعور الى حدّ مفرط كان له اسوأ وقع في الحياة الاجتماعية ، فالخيال جموح اذا لم يضبطه عقل رشيد ، يقتحم بصاحبه مهامه التيه والضلال .

هذا ما رأينا تلخيصه راجين الاغضاء عما فاتنا ، وان يكون في ما ذكرنا محرّضاً لكتابنا الافاضل يحملهم على الاستقاء من ادب الغرب . فيجدون فيه ثروة طائلة للغتنا العربية ، وما احوجها الى مثل ذلك !

---

١) *Portraits du XIX' siècle, par* Léon Gautier, *I vol. p. 82, 87.*

٢) لنتذكر شر فكتور هوغو :

J'ai nommé le corbon par son nom : pourquoi pas ?